

الوعي بالأجناس الأدبية في كتاب الحيران للجماظ

بقلم : حمادي صمود

مقولة الجنس الأدبي مقولة مجردة : ومرتبة من مراتب التفكير في الظاهرة الأدبية متقدمة، يتطلب الوعي بها انتاجا وفيرا يُدرس على أساس ما في نصوصه من الشبه والمجانسة والانتلاف، من جهات مختلفة، لتصفّ تبعاً لذلك في أقسام بينة الحدود، متميزة الخصائص. ويمكن لتلك الحدود، لأسباب متعلقة بصيرورة الأدب وأسرار حركة النصوص وهجرتها، أن تتسع أو تضيق، وبعض تلك الخصائص أن تتداخل، إلا أن التصنيف يحتاج، ليكون، إلى رواصم يسيطر بها على موضوعه، والجنس يلزمه ليقوم عدد أدنى من الخصائص إن نقص عَقَتِ الحدود وتشابهت القسمات⁽¹⁾.

فلماذا إذن البحث عن الوعي بالأجناس الأدبية في مؤلف ليس خالص الانتساب إلى المباحث الأدبية، وصاحبه عاش في زمن متقدم لم يصلنا عنه ما يمكن أن يعتبر تفكيراً في الظاهرة الأدبية منتظماً عميقاً ؟

(1) المؤلفات النظرية في الأجناس الأدبية قليلة العدد، صعوبة المراس لشدة اتصالها بمنظومة الأجناس والأنواع التي انبنت عليها. فإن كان القارئ من منظومة مغايرة وتصور للأدب مختلف، وجد من العسر على قدر ذلك التباين وعمق ذلك الاختلاف انظر : Collectif, Théorie des genres Paris, Deuil, 1986 وقد عربه عبد العزيز شليل ونشر في طبعة أولى عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1994 (لم تحتو هذه الترجمة نص جينات) وقد رأى العرب نشرها مستقلة ضمن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، مصر 1999. وانظر أيضاً :

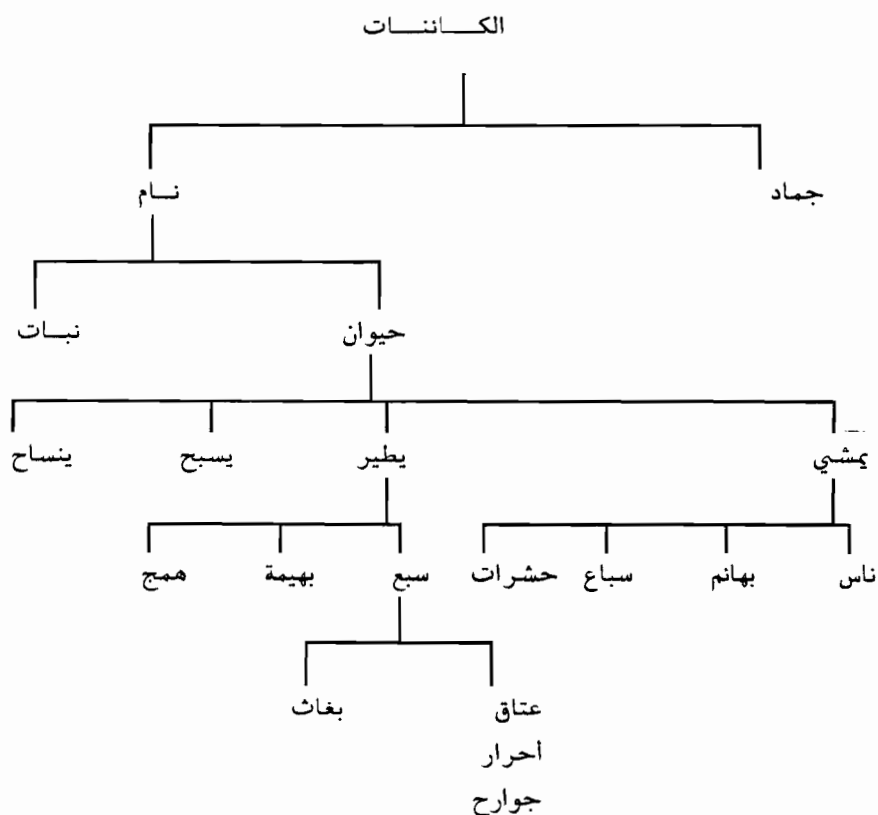
- Shaeffer (Jean-Marie) : Qu'est-ce qu'un genre littéraire ? Paris, Seuil, 1989.
- Dominique Combe, Les genres littéraires, Paris, Hatte, 1992.

لئن كنا في غنى عن اقناع القارئ بأهمية كتابة الحيوان مصدرا من مصادر الأدب. وجمهرة أشعار لا تقلّ قيمة عن المؤلفات التي إلى الشعر قُصِدَتْ. فالشعر مورد أساسي منه استمد الجاحظ ما به فصل القول في حياة الحيوان وعجائب خلقه، وبشهادته يحتج على من ألف قبله من الحكماء في موضوعه ووصلته كتبهم⁽²⁾، فإننا نحتاج إلى كشف ما يُطمعنا في الفوز منه، على تقدّم زمنه، وحديث الناس عن انصرام المعارف في مؤلفات صاحبه!، بما يدل على وعي نظري بخصائص نصوص الأدب، ما يجمع بينها وما يفرق، حتى تصنّف وتقسّم وتبين أجناسها الكبرى وما قد يتفرع عن تلك الأجناس من أنواع بحسب ما يختص كل نوع منها فضلا عما يؤلف بينها ويجانس.

في كتاب الحيوان، وهو كتاب ألف إجمالا برؤية المعرفة الكلاسيكية وصرّوفها، اهتمام واضح بمسألة التصنيف وإدراج الكائنات في شجرة تنشُد فروعها إلى أصولها على مقتضى ما يتوفر من خصائص الجمع والتفريق، على أن تكون تلك الخصائص ماثلة في الكائن بعلم عن السابقين دونوه في كتبهم، أو بخبرة تناقلها الناس وأودعوها آدابهم وأشعارهم، أو بملاحظة ومعينة، وبكل ذلك مجتمعا في الغالب الأعم. وما يؤكد الاهتمام مجيء الحديث عن ذلك في فاتحة الكتاب إشارة صريحة إلى أن التأليف في الحيوان لا يتم إلا متى أنبنى على مشروع تصنيف لا غنى عنه بالرغم

(2) أشار المحقق عبد السلام محمد هارون في المقدمة في باب سماء «مراجع الجاحظ في تأليف الحيوان، إلى هذه المسألة إشارات مفيدة: الحيوان، 18/1 - 24. ونورد هنا نصا واضح الدلالة على ما نقول. يذكر فيه الجاحظ السبب لذي من أجله لم يجعل لما يسكن الملح والعذوبة (...) بابا مفردا، «ولم يجعل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والأودية. والمنافع والمياه الجارية. من السمك وما يخالف السمك. مما يعيش مع السمك بابا مُجرّدا، لأنني لم أجد في أكثره شعرا يجمع الشاهد ويوثق منه بحسن الوصف وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة. ولم يكن الشاهد عليه إلا أخبار البحرين، وهم قوم لا يعدون القول في باب الفعل. وكلما كان الخبر أغرب كانوا به أشدّ عجباً، مع عبارة غثّة ومخارج سمجة (...)» وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه، الحيوان 17 - 16/6.

مما قد يعتوره من نقص، ويتسرب إليه من وهم وخطأ. فمنذ الصفحات الأولى يبدأ في التبلور مُشجَّر ينطلق فيه من الكائنات بوصفها الجنس الأعلى أو جنس الأجناس مجرياً إياه في التسمية على ما يقع عليه اسم الكون في أصل معناه أي الوجود في مقابل النفي والانعدام والفساد، ثم يتفرع في المعاهد والرؤس التي لها بموضوع الكتاب علاقة والاكتفاء بذكر الأقسام الأجنبية عنه ذكرًا منقطعاً عقيماً. ويمكن على سبيل المثال إيراد رسم لم نزد فيه على تمثيل ما جاء كلاماً ونصاً :



وأهم من هذا الرسم دلالة على الوعي بمراتب الكائنات، وانتظامها في مجموعات كل واحدة تبع لما قبلها وأصل لما يتفرع عنها، ما في حديثه في مقدمة الكتاب ومتمنه من إشارات وآراء تكشف أن حديثه في

هذه المسائل ليس من باب الرواية والنقل والنسج على منوال الآخرين. وإنما هو حديث العارف بالقضايا في ما تتسع له وتضيق عنه.

فهو يعير عن عدم رضاه بالتقسيم منذ درّجه الأول ورأيه أن «حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال نام وغير نام» ويفسر ما ذهب إليه مستعرضا ما شاع من التسميات ⁽³⁾، مبرزاً ضيق بعض المقولات عن احتواء الموجودات ولذلك توجد إمكانات أخرى للتوزيع والتقسيم. «على أن الحشرات راجعة في المعنى إلى مشكلة طباع البهائم والسباع» ⁽⁴⁾. وقد يتوسع في التقسيم، ويحرص على ضبط الحدود استناداً إلى ما يداخل بين المخلوقات ويميّز. يُدقّق المقولة التصنيفية بالدخول في جزئيات القسم وتفصيله بغية الوقوف على حقيقة ما ينبني عليه التمييز بين الأجناس والأنواع :

«ليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير» ⁽⁵⁾

«واسم طائر يقع على ثلاثة أشياء : صورة، وطبيعة، وجناح وليس بالريش والقوادم والأباهر والخوافي يُسمى طائراً ولا بعدمه يسقط ذلك عنه» ⁽⁶⁾

«وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير» ⁽⁷⁾

ومن أهم ما اتصل بهذا الضيق بالتصنيف الجاري، ووقوع المقولات المتوفرة دون احتواء الموجودات، اعتباره التصنيف وتحديد الأقسام، رؤى خاصة تتحكم فيها اللغة والثقافة لا كلياتٍ مخترقة لكل ثقافة وموجودة بكل لسان على الهيئة نفسها. فللغة طريقتها في تصنيف الموجودات والربط بينها وتقسيمها إلى أقسام وتحصيلها. وهذا يعني أن الإحساس

(3) الحيوان، 26/1.

(4) المصدر السابق، 27/1.

(5) المصدر السابق، 30/1.

(6) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(7) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بالموجودات وإدراك ما يقوم بينها من عناصر الجمع وعناصر التمييز ليس، كما قلنا. قانونا كلياً عابراً للثقافات وعابراً للألسنة وإنما هو علاقة متينة وطيدة بالطريقة التي ترى الثقافة من خلالها تلك الموجودات، وبالعلاقات التي تبرزها أو التي تخفيها. فالتسمية من وجهة النظر هذه ليست وضع اسم بإزاء مسمى بطريقة غير مبررة وإنما هو شيء يعبر عن رؤية وينشئ بين الشيء ومستعملي اللغة عادات في الحديث عنه. فعلى ما درجوا عليه في ترتيب الموجودات وعلى ما اشتهر بينهم من الأسماء الموضوعة لذلك يكون الجمع والضم أو التمييز والتفريق.

إن الأمم تختلف في ترتيب الأشياء وتصنيفها بأسباب من اللغة الجارية ذاتها :

«ونحن في هذا الموضع إنما نعبر عن لغتنا، وليس في لغتنا إلا ما ذكرنا»⁽⁸⁾.

فلا إمكانية للجمع أو الأفراد وإلحاق شيء بشيء أو فصله عنه إلا بقدر ما تسمح اللغة ويهيئ الاستعمال :

« (...) على أن الحشرات راجعة في المعنى إلى مشكلة طباع البهائم والسباع إلا أننا في هذا كله نتبع الأسماء القائمة المعروفة، البائعات بأنفسها، المتميزات عند سامعيها من أهل هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان، وإنما نفرد ما أفردوا ونجمع ما جمعوا، »⁽⁹⁾.

ومهما كانت دواعي الجمع من جهة التركيب، والطبائع، وطريق العيش، والغذاء، فإنه لا يمكن ويتيسر إلا إن سمحت بذلك اللغة ورخصت فيه الأسماء وإلا فليس لنا إلا التفريق والفصل على ما يثير ذلك فينا من العجب :

(8) الحيوان، 26/1.

(9) الحيوان، 27/1.

«وأي سَبَّع أدخل في معنى السبعية من الأفاعي والشعابين ؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها وإن كانت من ذوات الأنبياء وأكالة اللحوم وأعداء الإنس وجميع البهائم»⁽¹⁰⁾.

ومن أبرز القرائن على وعي صاحب الحيوان بأهمية التقسيم والتصنيف، كثرة التعريفات والحدود. والحد في معناه اللغوي ومفهومه المنطقي هو الأداة الأساسية لبيان الفروق وبناء ما يفصل بين الأشياء ويجمع من خصائص يقوم عليها، وبها يستجيب للشروط المنطقية التي يجب أن تتوفر فيه. فليست تقوم الحدود إلا بنية ضبط العلامات الفاصلة الواصلة ووضع الرواسم المساعدة على القسمة بين الأشياء للتحكم فيها بإخراجها من حالة التداخل والفوضى إلى التمايز والانتظام⁽¹¹⁾.

إلا أن التمايز والانتظام لا يقومان على مطلق الخلاص وتام المباشرة لما بين الموجودات من تشابك وما بين الكائنات من من وجوه التعالق وضمني الأواصر، وهذا بدوره دليل ناصع على الوعي الذي أشرنا إليه بحيث يقوم الجنس والقسم ويتحصل الصنف بأسباب غالبية ولكن ذلك ليس مانعا من الشركة من وجوه آخر. يقول الجاحظ :

«وليس من الأبواب باب واحد إلا وقد يدخله نتف من أبواب آخر على قدر ما يتعلق بها من الأسباب ويعرض فيها من التضمن»⁽¹²⁾.

ويلحق بالحد في الدلالة على الوعي، اعتمادُه التشبيه وسيلة للتقريب والمقايسة، وسبيلا إلى التوضيح والتنظيم. ولا يخفى على العارف بتاريخ العلوم أهمية التشبيه في استخلاص القوانين والقواعد التي تطرد على الظواهر، كما لا تخفى قدرته على تقرير الحجة في أذهان مخاطبين بحمل المثل على المثل والمجانس على المجانس :

(10) المصدر السابق، 28/1.

(11) انظر على سبيل المثال كثرة التعريفات كثرة واضحة : 28/1 - 31.

(12) المصدر السابق 15/6.

«فأما الهمج فليس بطير، ولكنه مما يطير، والهمج فيما يطير كالحشرات فيما يمشي»⁽¹³⁾.

وقد تتجاوز مظاهر الوعي هذا المستوى الأول الذي يستخرجه القارئ ويستنتجه من طريقته في صوغ المسائل وسوقها. إلى مستوى ثان تتحول فيه هذه المعرفة إلى مقياس يميز به بين الرجال وتحدد منازلهم من رجحان العقل والحظ من الفطنة. وهذا معناه أن الوعي الأجناسي في الكتاب تحول إلى قيمة من القيم الفاصلة في مجال المعرفة.

«وروا عن أبي وائلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبلغل. أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا من الشبايط في جوفها بيضا قط. فإن كان هذا الخبر صحيحا. فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحا، وذلك أني سمعت له كلاما كثيرا من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس. يدل على أن الرجل حين أحسن في أشياء وهمه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئا فيمتنع عليه. وغره من نفسه الذي غر الخليل بن أحمد، حين أحسن في النحو والعروض، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحن، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما إلا المرة المحترقة ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله تعالى، فإن الله عز وجل لا يعجزه شيء»⁽¹⁴⁾.

إلا أن هذه المظاهر كلها لا تبلغ في الدلالة على التيقظ النظري الذي انبنى عليه كتاب الحيوان، وعلى الوعي المتطور بالتصنيف والتبويب، ما يبلغه مظهر آخر نعتقد أنه السبب في تأليف الكتاب والغرض الذي إليه تساق مادته في جزئياتها وكلياتها. فلقد ردّ الجاحظ أصناف الحيوان جميعها، بعد أن تبسط في ذكر الفروق القائمة بين أقسامها وتحصيل خصائصها الجامعة لها ضمن السلم الذي يحدد مواقعها من النظام الذي بنى عليه مشروعه، إلى ثنائية تصنيفية لها في تفكيره شأن عظيم لأنها

(13) الحيوان، 28/1.

(14) المصدر السابق، 150/1.

ستكون المدخل إلى نظريته في البيان وقد كنا أسهبنا في الحديث عنها، وسبيله إلى الاستدلال على المعنى الأكبر الذي تترافد الأدلة لتعبر عنه هي ثنائية الفصح والأعجم⁽¹⁵⁾ التي مهد بها إلى أس مشروعه، وما نعتقد أنه غور فكره، وهو جمعه الأجناس والأنواع والأقسام في قسم واحد أقام فيه الوظيفة والمعنى الأسنى مقام المقولة التصنيفية. وهذا المعنى الأسنى عنده هو الحكمة باعتبارها مدلول الكون بما فيه. يقول صاحب الحيوان في جملة نعتقد أنها تحيط بتصوره للوجود وتكشف غايته من التأليف : «ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة»⁽¹⁶⁾. وبناء على معنى المعاني هذا ومقولة المقولات، سيرتب الموجودات في أقسام وأصناف تخدم مباشرة غرضه وتعيّنه على إقامة مشروعه الفكري من التأمل في الخلق. فالموجودات بالنسبة إلى هذه المقولة الأم صنفان : صنف أول جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة وصنف ثان جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة. ومن هذا الباب يأتي الحديث عن العاقل وغير العاقل فيجمع بينهما وقوعهما موقع الدليل على الحكمة واختلفاً من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل⁽¹⁷⁾. وجعل البيان استدلال المستدل وأداته ليقول المعنى القائم فيه وفي الأدلة المعطّلة عن الاستدلال⁽¹⁸⁾.

هذه على الإجمال بعض مظاهر الوعي بالتصنيف ومقولاته الرئيسية لم نتوسع في رصدها لأنها ليست أصل ما نحن فيه وإنما غرضنا منها

(15) الحيوان، 31/1.

(16) الحيوان، 33/1.

(17) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(18) انظر تفصيل هذه المسائل في :

. حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس هجرياً.
. منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب منوبة، ط2، 1994 (ط 1، 1981)، مفهوم البيان عند الجاحظ، ص 157 وما بعدها.

. رجاء بن سلامة : صمت البيان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.

. نور الهدى ياديس النويري : تصوّر العرب لعلاقة اللفظ بالمعنى وأثره في فهمهم للمجاز، عمل مرقون، كلية الآداب - منوبة، عدد 504.

تبرير الموضوع واختيار البحث في الوعي بالأجناس الأدبية في كتاب
نعرف أهمية المادة الأدبية فيه وبيّنا أنّه ما كان ليكون لولا حد أدنى من
الوعي الأجناسي.

فهل ستستفيد المادة الأدبية الواردة في الكتاب من هذا الوعي ؟

المادة الأدبية في كتاب الحيوان مادة غزيرة جدا شديدة التنوع. ولئن
كان الشعر غالبا عليها باعتباره، كما سبق أن ذكرنا، المصدر الأساسي الذي
يتمتع منه الجاحظ معلوماته عن أصناف الحيوان، فإن دراسة الكتاب دراسة
شاملة توقفنا على كثير من السياقات التي يعبر فيها مؤلفه عن مواقف
مهمة من قضايا نقدية كبرى. ويستعرض أنماطا من القول، وفنونا من
الأدب، لعلها تعكس حياته في القرن الثالث للهجرة وتؤكد أن الشعر لم
يكن غالبا غلبة مطلقة. وقد حصلت لنا هذه المادة الضخمة بتظافر
عناصر ثلاثة : قراءتنا لكتاب الحيوان أكثر من مرة إذ هو من مصادر
التفكير اللغوي والبلاغي الأمهات، فيه تبلورت أكثر من أي كتاب آخر
نظريته في البيان والتبيين !! واعتمادنا على الفهارس الهامة النافعة التي
وضعها محققة عبد السلام محمد هارون، واستفادتنا من جهد بعض
المرشّحين من حضر دروسنا في مستوى التبريز عن منزلة المنشور في
الخطاب النقدي العربي القديم، لاسيما دفعة 1997 - 1998.

إيراد المصطلح متعيّنا أو بمرادفه وغياب الخطاب الواصف :

في كتاب الحيوان سياقات عديدة ورد فيها مصطلح الجنس مفردا
أو جمعا عند الحديث عن أنماط من النصوص تنتمي إلى الأدب، وللعرب
معرفة بها قديمة تعود إلى فترة ما قبل مجيء الإسلام، وهي أنماط شبت
في دائرة المشافهة، وتطورت أشكالها وتنوعت بالرواية والسّماع.

يقول الجاحظ في نص يجمع كل ما ذكرنا :

«وما زادهم في هذا الباب، وأغراهم به، ومدّ لهم فيه أنهم ليس
يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابا مثلهم؛ وإلا عاميا لم يأخذ

نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق، أو الشك ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط. وإما أن يلقوا راوية شعر، أو صاحب خبر، فالراوية كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر»⁽¹⁹⁾.

ورغم أن مصطلح الأجناس متصل اتصالا واضحا بالأشعار والأخبار وضروب الاختلاق المتعلقة بالغيلان والسعلاة مما أودعه العرب أحاديثهم التي توارثوها فإنه يرد في السياق عاريا ليس تسنده أية شحنة نظرية فيقوم في النص دالا على القسمة والتبويب دون أن تبرز أسس تلك القسمة ولا مبررات التبويب.

ومن أبرز الدلائل على أن المصطلح ليس مرتبطا بما يعرف به ويفسر معناه والمقصود منه، سوقُ صاحب الحيوان، في سياقات عديدة، مرادفات له أو ما نرجح أنها مرادفات تدل كما يدل على التصنيف والتفريق والتفريع والتنويع في صورة عامة مجملة لا تحصل عنها إلا الإشارة إلى الظاهرة دون أي جهد في توضيحها وتأصيلها مع ما قد يقوم من غموض في تبين جهة الحديث التي يقصد إليها المصطلح.

يقول الجاحظ في نص مهم صدر به القول في العصفور :

«وعلى أنا قد ذكرنا من شأنه أطرافا ومقطعات | من القول | تفرقن في تضاعيف تلك الأصناف. وإذا طال الكلام وكثرت فنونه صار الباب القصير من القول في غماره مستهلكا وفي حومته غرقا. فلا بأس أن تكون تلك الفقر مجموعات، وتلك المقطعات موصولات، وتلك الأطراف مستقصيات مع الباقي من ذكرنا فيه؛ ليكون الباب مجتمعا في مكان واحد. فبالاجتماع تجتمع القوة، ومن الأبعاض يلتئم الكل، وبالنظام تظهر المحاسن ولست أدعي في شيء من هذه الأشكال الإحاطة به»⁽²⁰⁾.

(19) الحيوان، 251/6.

(20) الحيوان، 199/5.

واضح أن مصطلح الأصناف الوارد في مطلع النص يرتبط بالحيوان لا بالنصوص الأدبية وأن القضية المطروحة هنا هي بين إرادة أن يكون الباب في موضوع القول مجتمعا والتداخل الضروري بين الأبواب لاستحالة الحدود العازلة الفاصلة، ولأن الحد يصل بقدر ما يفصل. ولكننا نجد إلى جانب ذلك مصطلحات متعلقة بالأدب أو بالكلام عامة بوصفه جنس الأجناس مثل الفنون والأبواب والمجموعات والأبعاد والكل والأشكال وجميعها تشير إلى أن الأصل لا مناص له من أن يتفرع ويتوسع ويصير بالقسمة أبعاضا يأتي التصنيف بعد ذلك ليردها إلى أبوابها ويجمعها بعد شتات. كما نجد، وهو أهم وأبعد غورا، فكرة الالتئام والاجتماع والانقسام وهي كلها مقولات من صلب الفكر التصنيفي ويمكن بناؤها بناء متدرجا ينطلق من اجتماع الظواهر في مكان واحد إلى ما يقوم بين عناصرها وأبعاضها من انسجام وملاءمة أصلها المجانسة والتماثل إلى أن تنبني في نظام متكامل متناسق يحكمه منطق داخلي وتحركه نواميس محددة. وهذه المراتب الثلاث هي في مصطلح الجاحظ : «اجتماع القوة» و«التئام الكل» و«ظهور المحاسن» أي جانب عملي وجانب تكويني وجانب جمالي وهي عنده قاعدة التصنيف وغايته.

إلا أن إirاده هذ المقولات التصنيفية يغلب عليه الإجمال والبقاء في العموم العاري عن أي سند نظري، فلم نصادف عند إجرائه لها متصلة بالأدب سياقاً واحداً فيه ذكر لحدود المفهوم أو ذكر لما يميز جنساً عن جنس ويفرق نوعاً عن نوع على عكس ما رأيناه عند إجرائها على أصناف الحيوان لذلك نميل إلى الاعتقاد في هذا المستوى من البحث أن العقيلة التصنيفية موجودة والتمييز بين الأمثال في الذهن قائم لكن بدون إشارة إلى ما عليه تنبني المجانسة ويقوم التنوع ولذلك ربما كثرت المترادفات في غياب الحدود الواضحة.

ينطبق ما نقول حتى على بعض النصوص التي تفاجئك عند القراءة الأولى بأهميتها النظرية لكنك لا تستطيع أن تستنبط منها شيئا ذا بال

إلا بالتأويل والتعويل على ما لم يقل النص وإنما اكتفى بفتح إمكانية قوله.

يقول الجاحظ متحدّثا عن مصنّفه والظروف التي ألت به عند وضعه :

«وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، (...) والرابعة أنني لو تكلفت كتابا في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر، والطفرة، والتولد، والمداخلة، والغرائز والتماس - لكان أسهل وأقصر أياما وأسرع فراغا؛ لأنني كنت لا أفزع فيه إلى تليقظ الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال،⁽²¹⁾.

يتصل بما نحن فيه من هذا النص أمران هامان : التنوع في المصادر الأدبية التي احتاجها تأليف الكتاب. وقد ذكر منها الأشعار، والأمثال، والآي من القرآن، والرواية. والاختلاف بينها حاصل بالعيان وحاصل بالممارسة. وتفرّقها في الكتب يدل على صعوبة الوصول إليها، والكلفة اللازمة للفوز بها وتحصيلها؛ ولكنه يدل أيضا على أنها، لاختلافها، لا تجتمع، وأن لكل جنس منها مكانا واحدا تجتمع فيه، وكتبا معلومة تضمها. وقد حاول الجاحظ في آخر النص أن يحوّل هذه المظاهر الملموسة إلى اعتبارات نظرية لكنها وقفت عند التقرير، وأحجمت عن الشرح والتفسير. فقد عبر بوضوح عن المسافة الفاصلة بين الأنواع أو الأجناس التي ذكر بصريح عبارة التباعد وهو مما يؤكد، في مستوى الخطاب الواصف، على الوعي العميق بالفرق. وأكد هذا الفرق بالظرف المشتق من مادة لغوية تدل على الفرقة وبعد الشقة «بين»، وعلّق البعد والين بالأشكال. وهذا المفهوم هو منتهى النص، ومعقد الاعتبار والنظر، وليس من الصعب تحديد مفهوم الشكل عند الجاحظ متى حملنا نصوصه بعضها على بعض

(21) الحيوان، 209/6.

فهو الهيئة الخارجية، وما تقع عليه العين من صور الأشياء وبنيتها الظاهرة، فتدرك منها بالحس دون حاجة إلى نظر العقل ما يميزها عن غيرها، أو يشاكل بينها وبينه.

ولكن هل يعني هذا أن الجاحظ يفرق بين هذه الأنماط الأدبية بما بينها من اختلاف في الشكّل؟ وهل إن المجانسة أو الاختلاف تقف في حدود الهيئة الظاهرة والأشكال المبادرة؟ هذا ما لا نستطيع باعتماد هذا النصّ القطع به. وحتى إن قطعنا به فإنه تبقى علينا، بل تبقى على الجاحظ. مؤونة تحديد ما يدخل في بنية الشكل، لا سيما في الأنواع المشتقة من أصل نظام واحد كالنثر مثلاً. ذلك أن التباعد بين الشعر والأخبار واضح وضح تباعد صورتني الانتظام والانتثار، أمّا التباعد بين الخبر، والرواية، وآي القرآن، فلا بد فيه من تفصيل لأن تقرير فرق الشكل وحده غير كاف للحديث عن وعي متطور بمقولة الجنس.

وما قلناه عن النصّ السابق يمكن أن نقوله عن نص آخر مشهور يعرف فيه الجاحظ الشعر ويبين رأيه في مآتي الحسن فيه :

«وذهب الشيخُ الى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي | والمدني | وإنما الشأن في اقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، | وكثرة الماء |، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير» (22).

فلا خلاف في أن لفظتي «ضرب» و«جنس» من مصطلحات التصنيف، كما لا خلاف في أن بنية الخبرين المعطوفين على الخبر الأول في جملة التعريف المصدرة بإنما في آخر النصّ تفيد التعدد والكثرة. فالشعر ضرب من ضروب آخر في النسيج، وجنس من أجناس آخر في التصوير. ولكن هذه البنية نفسها تحد من اصطلاحية اللفظتين لا سيما

(22) الحيوان، 13/3 . 132 .

لفظة «الجنس». ولكنها لا تحد منهما إلا في الظاهر لأن ما يلانم الشعر من ضروب النسج وما نجد فيه ولا نجد في غيره من ضروب التصاوير هما اللذان تتحصّل بهما ماهيته ويقوم طريقة في إجراء اللغة، خاصة في مستوى نظمها ونسجها، وسيكون لهذه الجملة مآل سعيد عند البلاغيين والنقاد المتأخرين وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني، وفي مستوى ما يستطيع الشاعر أن ينشئ بها من التصاوير التي نحسها وتفعل فينا وإن كنا لا ندركها إلا بعقولنا لأنها تصاوير مجردة لا تبرز للعيان، وإنما يصل إليها العارف بتصاريف الكلام المُدرِك لقدرة اللغة على إحداث الأشكال وإن كُنّا لا نراها. فالشعر جنس من القول مخصص لأنه جنس من التصوير؛ وهو ضرب من انتظام الكلام والنسج بين أجزائه لآته يستقل بطريقة في ذلك تختلف عن أنواع القول الأخرى.

إلا أن ما ذكرنا يبقى ضمناً في النص؛ لم يتبوّأ في الكتاب ما يجوز القول بوضوح المقولة بخروج المصطلح من الشركة والترادف وعادي الاستعمال الذي قد يُضعف أحياناً شحنته الاصطلاحية.

من تردد مقولة الأجناس الى حضور الأجناس :

لئن كان المصطلح الأجناسي يجري في الكتاب بشيء غير قليل من التردد، وعدم وضوح الرؤية؛ وغياب ما يمكن أن يعتبر سنداً نظرياً، فإن الأنواع والأجناس حاضرة بأسمائها المستقرة يطنب الجاحظ في ذكرها، ويكرّر الحديث عنها في كل مناسبة يحتاج فيها إلى التذكير بموارده وبما يدقُّ لحة مؤلفه.

ويكشف النظر في المادة الأدبية الواردة في كتاب الحيوان وخصوصاً في ما جاء منها ذا صبغة وصفية نظرية تتناول النصوص في خصائصها الأدبية ومميزاتها الأسلوبية والشكلية أن الشعر يحظى بأوفر نصيب منها. فإضافة إلى حضوره شواهد يستمد منها المؤلف معارفه عن الحيوان؛ ويجعلها، كما ذكرنا، سنداً لتجربته، وحجة على كثير مما ورد في مصنفات القدماء في الموضوع، يقوم عن الشعر خطاب نقدي فيه إشارة

إلى مسائل متصلة بمكونات جنسه، وبما طرحته صناعته على اختلاف الأزمنة وتنوع أنظمة كتابته من قضايا خلافية كبرى، كما فيه تأريخ ميلاده، وتحديد لوظائفه، ولما طرأ على مكانته من تغير بتغير الوقت وظهور حاجات جديدة اقتضت جنسا من الخطاب أنسب لتلك الحاجات، ولكثرة ما عني الشعر من اعتبارات نظرية في كتاب الحيوان، بقي خطاب الجاحظ عنه إلى فترات متأخرة جدا من تاريخ النقد والبلاغة، متحكما في ما يعتمد في وصفه وتحديده، وبقيت رؤيته له باسطة سلطانها على أجيال عديدة من العلماء بالشعر والمتفقيين في صنف الخطاب.

ونورد الجدول الموالي لبيان أهمية المادة المتعلقة بالشعر ودورانها على عدد كبير من القضايا النظرية الهامة في دراسته، مما ستطوره الفترات اللاحقة ولعلها لن تضيف إليه شيئا ذا بال. وقد اكتفينا في العمود الأول من الجدول بالإشارة إلى رؤوس المسائل دون الدخول في تحليلها لأنه ذلك، على أهميته، يخرج بنا عن المراد من بحثنا هذا، ولا شك أنه يحتاج إلى بحث خاص نتناول فيه القضايا المطروحة تناولا تفصيليا.

جدول المحاور والقول في الشعر دون غيره^(*)

المحاور	القول أو الفقرة وإحالاتها	ج / ص
١ - التعريف والحد : هو ديوان العرب، خاصيته : الوزن والقافية	وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها	71/1 وانظر 79/1
١١ - التاريخ فيه قولتان في الكتاب متباعدتان متفاوتا المدة الزمنية	١ - وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن (...) ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس (...) فإذا استظهرنا الشعر. وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام.	74/1

(*) الجدول بالنصوص والاحالات على المصدر أعدها أحد مترشحي دفعة 97 - 98.

المحاور	القول أو الفقرة وإحالاتها على مواطن أخرى من الكتاب في نفس المحتوى	ج / ص
	2 - وقد قيل : الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول بما بيننا اليوم وبين أول الإسلام	277/6
III - الخصائص - الوزن - القافية - الطبع / التصوير	* ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منشور وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون. * الشعر الموزون والكلام المقفى (...) وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير. (...) ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر وانظر 123/5 - 425 - 426 - 85/7 (...) كان للناطقة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة (...) وحتى اجتمعت العرب على تصويبه وعلى اتباع أثره وعلى أنها لغة عربية. (...) ولو حوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن وقبل هذا والشعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه وذبح حسنه وسقط موضع التعجب لا كالكلام المنشور ... (...) فإن حفظ الشعر أهون على النفس وإذا حُفظ كان أعلق وأثبت وكان شاهد وانظر أيضا : 3 / من 45 إلى 86 / 41/1 وما بعدها	366/3 71/1 132/3 199/1 280/5 75/1 284/6 181 / 4 380 , 183
IV - مواقف من الشعر لها علاقة بالخصائص 1 - الكذب (بمعنى المبالغة) 2 - السرقة	1 - نص متميز في تفسير الكذب في الشعر من 248/6 إلى 252 ويعزو أبو عثمان التفسير هذا إلى شيخه وصديقه النظام 2 - انظر : 29/6 - 30 - 164 و3/7 وإن كان السياق مغايرا 21/4 - 181 الجزء 3 بداية من 293. نص مطوّل	248/6 252

المحاور	القول أو الفقرة وإحالاتها على مواطن أخرى من الكتاب في نفس المحتوى	ج / ص
3 - مضرته	فيجب على العاقل بعد أن يعترف ميسم الشعر ومضرته أن يتقي لسان أخس الشعراء وأجهلهم شعرا بشطر ماله بل بما أمكن من ذلك. فأما العربي أو المولى الراوية. فلو خرج إلى الشعراء من جميع ملكه لما عثفته خاصة 171/7 - 174	294/5
4 - نعمته	وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل بمدوحا 383 - 380/4	383/4
5 - المدح / الهجاء	والعربي يعاف الشيء ويهجو به غيره فإن ابتلي بذلك فخر به ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه. فافهم هذه. فإن الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم قد يمدحون الشيء الذي قد يهجون به، وهذا باطل فإنه ليس شيء إلا وله وجهان وطرفان وطريقان فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين وإذا ذموا ذكروا أقيح الوجهين.	174/5
6 - تصنيفات أجناسية داخل جنس الشعر : شعر الذاكرة	الجزء 3 من ص 45 إلى ص 86. وسنذكر من نواذر الشعر جملة فإن نشطت لحفظها فاحفظها فإنها من أشعار المذاكرة. (ص. 46) والتصنيف الذي يعتمد : أغراضي - بلاغي - انطباعي ... أ - أغراضي : الغزل : 49 - 50 - الزهد 51 + 75 هجاء السادة 80 - الشكر والحمد 71 ... ب - بلاغي : في التشبيه 52. من البديع 57 الإيجار وحذف الفضول 73 ج - انطباعي : مختارات حسان 61. آيات للمحدثين حسان 62. د - شعر النساء : من 53 إلى 66 (وهو شعر في الغزل لنساء مغمورات ومن جنس الغزل الفاحش) هـ - شعر الصبية (63 - 66)	45/3 إلى 86
شعر التسخف	وسنذكر لك بابا في التسخف وما تتسخر به لك إذ كان الحق يثقل ولا يخف إلا ببعض الباطل فانظر كذلك، 15/6 وما بعدها).	178/5 إلى 199

المحاور	القول أو الفقرة وإحالاتها على مواطن أخرى من الكتاب في نفس المحتوى	ج / ص
V . مواقف نقدية متميزة يعالج بها الجاحظ قضايا نقدية هي مدار اهتمامات عصره 1 - نسبة الجودة في الشعر:	والقضية التي لا احتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والناتبة وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد من كان وفي أي زمان كان. (انظر : 98/3 - 99 ، 126 - 127 ، 130 - 132 ، 293 ، 327 ، 155/7).	132/3
2 - التهجم على رفض الجديد والتمسك بالقديم وتعظيمه	فداء المنشأ والتقليد داء لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الأطباء، وتعظيم الكبراء وتقليد الأسلاف وإلف دين الآباء والانس بما لا يعرفون غيره يحتاج إلى علاج شديد، والكلام في هذا يطول. انظر : 108/2 ، 27/3 ، 130 - 132 ، 272/6 - 281 ، 284 خاصة 277 - 287 من نفس الجزء).	327/5
3 - الدفء عن شعرية شعر المولدين وتفضيلهم في مواطن قولية وأغراضية حتى على فحول القديم والعرب عموما	- في جودة شعر أبي نواس مثلا : (...) هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحنق بالصنعة وإن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك العصية أو ترى أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا. (انظر 108/2 ، 57/3 ، 58 ، 63 ، 98 ، 99 ، 103 ، 109 ، 127 ، 453/4 ، 454 ، 327/5 ، 272/6 - 281) وفيها أحكام نقدية معيارية وانطباعية في الشعر الجاهلي والإسلامي وشعر المولدين.	27/2
4 - الحملة على الأعراب والرواة : قضية الوضع	(...) وما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومد لهم فيه، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم وإلا عاميا لم يأخذ نفسه قط	

المحاور	القول أو الفقرة وإحالاتها	ج / ص
	على مواطن أخرى من الكتاب في نفس المحتوى	
	وإما أن يلقوا رواية شعر أو صاحب خبر بتميز ما يستوجب التكذيب واتصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف في هذه الأجناس قط وإما أن يلقوا رواية شعر أو صاحب خبر فالرواية كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر . ثم انظر : 118/3	251/6
	قال الأصمعي : قال رجل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟ قال : مرزوق أحمق ! قال وقال أعرابي لرجل : كيف فلان فيكم ؟ قال غني حظي قال : هذا من أهل الجنة ! ثم نحيل على موقفه من الأعراب في الرواية عموما ورواية الشعر تحديدا : 137/2 ، 157/1 ، 156/4 ، 178 ، 223 ، 528/5 ، 29/6 ، 164 ، 200 ، 251 ، (175/7 ، 280)	
5 - المواجهة بين تعظيم محتويات الشعر ومعانيه من ناحية واستنقاصها والسخرية منها من ناحية أخرى. وهذا في إطار صراعه مع نقاد عصره ضمن المحاور الآتية الذكر .	حول أعجوبة الأعرابي في توظيف قساوة الطبيعة لفائدة حياته ومعرفته (30/6). (...) ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرمال وعرفوا الأنواء ونجوم الامتداء لأن كل من كان بالصالح الاماليس حيث لا أمانة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشقة مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه ... ثم : 277/6 - قوله متميزة وكان أحدهم لا يدع عظما منبوذا باليا ولا حجرا مطروحا ولا خنفساء وجعلا ولا دودة ولا حية إلا قال فيها. فكيف لم يتهيا من واحد منهم أن يذكر الكواكب النقطة مع حسنها وسرعتها والأعجوبة فيها . (وانظر 168/7)	30/6
	(انظر 79 ، 75/1 ، 82 ، 16/6) وهذا في إطار دفاعه عن «النسيية» وتحامله على التعصب بما فيه في المجال الثقافي (...) فليس إلا : لا ، أو ، نعم .. إلا أن لا ، موصول منهم بالغضب وقولهم ، نعم ، موصول منهم بالرضاء	277/6
		7/6

ومن أبرز ما به تتأكد مكانة الشعر في هذا الكتاب، زيادةً على ما عرضَ الجدول؛ وروده في كثير من السياقات والنصوص بمثابة النمط الأوفى، والجنس الذي شُحِدَتْ على مِسْنَتِهِ ملكاتُ العرب في القول، وعلى إيقاعه صَرَفُوا الكلامَ وأجروا اللغةَ حتَّى ملأَ أفقَهُم الأدبيُّ وسدَّ حاجَتَهُم إلى كلِّ شكلٍ سواه، يجربون بإتيانه اقتدارهم ويبرزون تفوقهم، واعتماده كذلك مرجعاً لكلِّ نمط في القول ومقياساً يتخذونه، في تصنيفهم مجاري الكلم، العمدة والراسم القارئ. والمعرف الوحيد، لذلك احتوت النصوص التي ورد فيها حديث عن أنواع أدبية مختلفة، في الغالب، على طرفين طرف قارئ هو الشعر وطرف متغير هو النثر تارة، وهو كلام العرب تارة أخرى. وهو الكتاب تارة ثالثة، والرجز أحياناً. وقد صاغ الجاحظ الطرفَ الثاني صياغةً نظرية تتسع بحكم بنية السلب القائمة عليها لكل شكل آخر مختلف عن الشعر، مُبَيِّن لطرق انبثائه والأساليب المحددة لماهيته. وهذه الصياغة هي «غير الشعر» بحيث يصبح الإطار الأجناسي الأسمى مكوناً من ثنائية تنبني على طرف واحد مثبت في الأول منفي في الثاني :

الشعر ≠ غير الشعر

وتبرز هذه الصياغة النظرية في نصوص كثيرة : طرفها الأول ومرجعها ثابتٌ باعتبارها بنية ضببطت قواعدها واستقر ما يميزها عن غيرها من صنوف القول والمنجز اللغوي، وطرفها الثاني قد يرد في الصيغة المنفية المشار إليها بما فيها من انفتاح على مُطلق الفعل اللغوي الخارج عن ضوابط الشعر من المخاطبات، كما يرد محققاً لإمكانية من إمكانيات الشكل النظري فيكون منشوراً أو كلام العرب أو كتاباً أو جنساً من الشعر مخصوصاً أشيرَ إليه في منظومة الأنواع بالأرجاز، وليس ما

ذكرنا، وكلُّه وارد في نصوص الحيوان، إلّا إمكانيات مختلفة تأتي لتؤكد مدى انفتاح هذا الطرف الثاني، وقدرته على احتواء ما لا نهاية له من المنجزات القولية. ويبرز هذا جليا في الجدول التالي :

جدول التسميات الأجناسية الخاضعة لثنائية : الشعر / غير الشعر

صيغة التصنيف	القولية	ج / ص
الشعر / الكلام المنشور المبتدأ - المنشور	والشعر لا يستطيع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب لا كالكلام المنشور والكلام المنشور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنشور الذي تحول من موزون الشعر	74/1
الشعر / الكتب	قالوا : فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر الملقى	79/1
الشعر / خطبة (الصلح)	ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطلالوا. وإذا انشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطلالوا.	92/1
آي القرآن - الأثر - الشعر / الخبر - النوادر - حكم عقلية	ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى الشعر ومن الشعر إلى النوادر ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد. ثم لا يترك هذا الباب (...) حتّى يفضي به إلى مزح وفكاهة وإلى سخف وخرافة	94 - 93/1
الشعر / غير الشعر	ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر	199/1
الأشعار المشهورة / الأحاديث المأثورة - الكتب المنزلة - الأمثال السائرة	(...) وأخذنا من ذكر أنسابها وأعرافها (...) بالأشعار المشهور والأحاديث المأثورة وبالكتب المنزلة والأمثال السائرة.	223/1
الأشعار / أمثال بيت شعر / مثل	كما تحظى بعض الأشعار وبعض الأمثال وبعض الألفاظ دون غيرها ودون ما يجري مجراها أو يكون أرفع منها ... فكلم من بيت شعر قد سار (...) وكلم من مثل قد طار به الحظ	103 - 102

صيغة التصنيف	القولـة	ج / ص
الاشعار المعروفة / الامثال السانرة - الاخبار الصحيحة - الاحاديث الماثورة	احتجاج صاحب الديك بالاشعار المعروفة والامثال السانرة - الاخبار الصحيحة والاحاديث الماثورة (وانظر 17/6)	5/2 يشبه ما جاء في 223/1
كتب شعر	(...) ولذلك احتاج العاقل في العجب بولده وفي استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي (...) إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك.	106/2 79/1
شعر / أحر النوادر	(...) فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما يبلغه حشد أحر النوادر	5/3
ضروب الشعر / ضروب الاحاديث	وعلى اني قد عزمت - والله الموفق - اني أوسع هذا الكتاب (...) بنوادر من ضروب الشعر وضروب الاحاديث	7/3
كل بليغ وصاحب كلام منشور كل شاعر وصاحب كلام موزون	ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منشور وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون	366/3
اشعار / نوادر - احاديث	... نذكر شيئا من نوادر وأشعار وشيئا من أحاديث من حارها وباردها	464/3
أرجاز / اشعار	وقد ولدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازا كثيرة (...) وقد ولدوا على لسان جحشويه في الخلاق أشعارا ما قالها جحشويه قط.	181/4
كلام وحديث منشور / رجزا - قصيدا موزونا	وسواء علينا جعلوه كلاما وحديثا منشورا أو جعلوه رجزا أو قصيدا موزونا	183/4
الاشعار / الامثال - الآي من القرآن - الحجج من الرواية	لو تكلفت كتابا في طوله ... لكان أقصر أياما (...) لأنني كنت لا أفرغ فيه إلى تلقط الأشعار وتتبع الامثال واستخراج الآي من القرآن والحجج من الرواية مع تفرق هذه الأمور في الكتب وتباعد ما بين الاشكال.	208/4
شعراء / رجازون قصيد / رجز	... وبنو حنيفة (...) لم نر قبيلة قط أقل شعرا منهم (...) وفي أخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء هكذا ورجازون	380/4 هو استدراك على الجزء الرابع

صيغة التصنيف	القولـة	ج / ص
الحكم لشريفة - الأمثال الكريمة بيت - خطبة قرب حرف من حروف الحكم الشريفة والأمثال الكريمة قد عفا أثره ودثر ذكره (...) ورب بيت هذا سبيله وخطبة هذه حالها.	230 542/5
كتاب منزل / حديث ماثور خبر	... ولم تذكر (... شينا من هذه الغرائب وطريفة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب منزل، أو حديث ماثور أو خبر مستفيض أو شعر معروف أو مثل مضروب.	13/6
غرر أشعار / نوادر كلام - طرف أخبار - طرف مضاحك	... ربما وشحت هذا الكتاب وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر الكلام وطرف أخبار وغرر أشعار مع طرف مضاحك	15/6
راوية شعر / صاحب خبر	... وما زادهم في هذا الباب (...) أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم (...) وإما ن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر	251/6
	فالرواية كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده وصارت روايته أغلب ومضاحك حديثه أكثر	
الأشعار المولدة / الأحاديث المصنوعة	ونعوذ بالله أن تدعونا المحبة لإتمام هذا الكتاب (...) ونستدعي إلى تفضيله والإشادة بذكره بالأشعار المولدة والأحاديث المصنوعة والأسانيد المدخولة ...	2/7
القرآن / الأشعار / كلام العرب	أما القرآن فقد نطق بأنه منطق والأشعار قد جعلته منطقا وكذلك كلام العرب	75/7
الأشعار / الطرف / الحكم	وسنذكر شينا من الطرف والحكم والأشعار	147/7

جدول التسميات الاجناسية غير الموضوعة ضمن ثنائية شعر / نثر

صيغة التصنيف	القولـة	ج / ص
رسائل - مزج / جد هجاء / مديح ملح تضحك / مواعظ تبكي	(...) وعبتني برسانلي وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخلطاني من مزج وجد ومن إفصاح وتعريض ومن تغافل وتوقيف ومن هجاء ما يزال ميسمه باقيا ومديح لا يزال أثره ناميا ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي	7/1
مثل - خبر - صنعة أدب - حكمة - فلسفة - مسألة كلامية	(...) ليس في كتبهم [الزنادقة] مثل سائر ولا خبر طريف ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية	55/1

صيغة التصنيف	القولـة	ج /ص
المبسوط من الكلام	(...) لأن النَّاسَ كلهم قد تعودوا على المبسوط من الكلام ...	89/1
نوادير المولدين كلام الأعراب	وأنا أقول : «إن الإعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب»	282/1
أمثال	فللعرب أمثال واستقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم	153/1
الكلام - الخطب الأديب /الحكيم	وسطّرت الكلام وأطلت الخطب من غير أن يكون صوّب رأيك أديب وشايحك حكيم	218/1
نوادير عجيبة - عيون النوادر	قال صاحب الديك : حدثني العتبي قال : كان في اليونانيين مَمرورٌ له نوادر عجيبة. وكان يُسمى ديسيموس قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة ما منها إلا وهي غرة وعين من عيون النوادر.	289/1
الأمثال	... وفي مثالهم في الشؤم «على أهلها دلت يراش»	291/1
المسائل خرافات، فطن	فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل ... فإن أعجبتك هذه المسائل واستطرفت هذا المذهب فاقراً رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب ...	308/1
أمثال	وهنا أمثال نضربها وأمور قد عاينتموها	138/2
حديث الأعراب - احتجاج متنازعين في الكلام اللهو ما يجوز في كل فن	... وأنا استظرف امرين استظرفا شديدا : أحدهما استماع حديث الأعراب. والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسان منه شيئا . فإنهما يثيران من غريب الطيّب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ولو أن ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل ما يجوز في كل فن.	6/3
الحديث	وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته وإن كان في لفظه سخف وابدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وُضع على أن يسر النفوس يُكرهها ويأخذ بأكظامها	39/3

ج اص	القولـة	صيفة التصنيف
287/4	وهذه الاحاديث كلها يحتج بها أصحاب الجهالات ومن زعم أن الأشياء كلها ناطقة وأنها أم مجراها مجرى الناس	الاحاديث 1
287/4	وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الاحاديث وأي ضرب منها يكون متأولا، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل	الاحاديث 2
298/4	فهل سمعت بحجة قط أو بحيلة أو بأضحوة أو بكلام ظهر (...) يبلغ مؤن هذا الاعتلال ؟	حجة - حيلة - اضحوة
241/5 - 242	... ومن ملح احاديث الاصمعي ... (وانظر 259/6 - 264)	ملح الاحاديث
248/5	... عن قتال العقارب والجردان ... وحدثنا عنها عبيد بأعاجيب ولو كان عبيد إسنادا خبرت عنه ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد.	الاعاجيب
396/5	... والقوم يخوضون معه في ذلك الحديث خوض قوم قد قتلوا تلك القصة يقينا	الحديث - القصة
16/6	وكلما كان الخبر أغرب كانوا به أشد عجبا مع عبارة غثة ومخارج سمجة	الخبر
440/6	... ومثل هذا كثير قد يغلط فيه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب	حكاية الغرائب
508/6	وكان أبو عبد الحميد المكفوف يتمثل في قصصه ...	القصص
9/6	... إلا أنني أشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحسن وبالنوادر أشغف وإلى قصار الاحاديث أميل وبها أحب أنها خليقة لاستثقال الكثير ...	الطرائف - النوادر قصار الاحاديث

ويمكن بعد قراءة هذه الجداول أن نسوق الملاحظات التالية :

- تعتبر المادة المتعلقة بالشعر : متى نزلناها في سياق التأليف في قضايا النقد والبلاغة. ذات كفاءة نظرية عالية ناهيك أن التعريف الذي اقترحه له لم يقع تجاوزه في القديم، ولا يمكن لأي نهج في كتابة الشعر، إلى يومنا هذا، أن يخرج عن دائرته وإن أضاف إليه ووسع منه. كما أن فيها صورة عن المواقف والآراء الرائجة بين العلماء والنقاد من المسائل الكبرى التي كانوا يتخاصمون بشأنها وينتصرون لطريقة في قوله على طريقة أخرى.

ولمن أبرز ما جاء عن الشعر في مؤلفه المقارنة بينه وبين الكتاب في زمن أصبحت فيه «المشاقفة» معطى حضاريا فارضا نفسه. فأقام الجاحظ موازنة بين الشعر بوصفه علم قوم ليس لهم علم أحسن منه، ومستودع أخبارهم، وسجل مآثرهم، ومخلد آثارهم، وما وصلنا من كتب عن الحضارات القديمة، وبشجاعة العالم دعا دعوة صريحة إلى ضرورة تجاوز «زمن الشعر» إلى الكتاب لأن الشعر «لا يُستطاع أن يُترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب (...)» وقد نُقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسنا وبعضها ما انتقص شيئا. ولو حوّلت حكمة العرب | الشعر | لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم»⁽²³⁾.

- وسّع الجاحظ من دائرة فعل الشعر حتى أن كثيرا من الأنواع الأدبية أو «الأشكال» كالمُلاح، والنوادر، والمواعظ، والأمثال قد ترد نثرا ولكنها ترد في كثير من المواطن شعرا⁽²⁴⁾ مما يجعلنا نميل إلى أنه يعتبرها أثرا عن خطاب لا شكلا له، وبنية مخصصة. ورأينا صاحب الحيوان ينتقل في إيرادها من النثر إلى الشعر دون أن يشعرنا بالفرق بين نمطي الكتابة في إنتاج ما يجري وراءه من تحقيق المتعة والترويح عن النفس واستعطافها لتكتمل منفعتها حتى لكان الشعر شكل جامع وبنية روّضت منذ القديم على الإيفاء بما يحتاج إليه الإنسان في غير ما يتصل بقوته ومعاشه.

- يرد النثر صورة ثانية من صور الكلام مقابل الشعر مرات عديدة، وكثيرا ما ترد العبارة عنه مركبة من الكلام باعتبارها جنس الأجناس الجامع متبوعا بصيغة اسم المفعول من نثر في موقع النعت : «الكلام المنشور». وقد ميّز الجاحظ بين نوعين من أنواعه : الكلام المنشور

(23) الحيوان، 75/1.

(24) المواطن كثيرة جدا. انظر على سبيل المثال : 300/1، 168/6، 284، 147/7.

المبتدأ والكلام المنشور الذي تحول من موزون الشعر وهو ما سيعرف في الفترات اللاحقة بحلّ المنظوم. ويذهب إلى أن المبتدأ «أحسن وأوقع»⁽²⁵⁾ ولهذا التمييز أهمية كبيرة ودلالات كثيرة : أقربها أن الشعر كان مولّداً لجنس من النثر يقع الحصول عليه بترجمة المعنى، وتخليصه بما به يكون الكلام شعراً كالوزن والقافية وإحداث المجازات والتّصاویر. والأصل في ذلك تصوّرهم أن الشعر ينطلق لينبني من الفكرة نثراً فتكون عملية التّرجمة رجوعاً إلى المبتدأ والأصل، وتخليصاً للنّص من الزوائد والتّواشيح. وقد كان حلّ المنظوم باباً مهماً احتفت به أمهات البلاغة. ولكن، لوقوع المنشور في هذه الحالة في هذه الحالة في إसार المنظوم ودائرته بحيث لا يستطيع النّاثّر أن يحدث معنى جديداً، لأنّ تعامله مع نصّه محكوم بنصّ أصليّ تترجم عنه بل تترجمه في مصطلحهم، كان أقلّ حسناً، وأخفّ وقعا من النوع الثّاني المبتدأ. ومصطلح الابتداء الذي استعمله الجاحظ سيكون له شأن كبير في الفترات اللاحقة، وسيؤلّد زَوْجاً مُهماً هو زوج : الابتداء = الاحتذاء إشارة إلى فعلين يأتيهما الإنسان : فعل يأتيه على مثاليّ سابق ومنوال قبله جاهز فليس له إلا أن «يحدّو حدّو» و«يصنّع مثلاً»، وفعل يأتيه متخلّصاً من قيد النّص - السّياج، والمنوال المحسوس القائمة، وحتّى إن ارتبط صاحبه بمنوال فهو منوال تقديرِيّ مُضمرّ لا يقيّد الفعل تقييداً يُعطّله.

ولا بد أن نشير إلى استعمال مخصوص للنّثر جاء مرتبطاً، في سياقٍ وحيد، بفكرة الجاحظ في انتظام الكون، وتناسق أجزائه، وحكمة بنائه، وما وضع الخالق في المخلوقات من «الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه وعلى عجب تدبيره وعلى لطيف حكمته» فاكتسى معنى خاصاً يقربّه من معناه المُعجمي الاصطلاحيّ المشير إلى التشتّت، والانتثار، على غير نظام، وهذا وضع لا يقبله سياق النّص لذلك يعتبر الجاحظ أن كل منشور آيل إلى منظوم حتّى تتأكد حكمة الخلق، يقول : «(..) ليعلم كل ذي عقل

(25) الحيوان، 75/1.

أنه لم يخلق الخلق سدى، ولم يترك الصور هملا، وليعلموا أن الله عز وجل لم يدع شيئا غفلا غير موسم ونشرا غير منظوم وسدى غير محفوظ،⁽²⁶⁾.

فالمنظوم لما فيه من نظام ينسجم مع المشروع الأعظم لكتاب الحيوان لذلك لا عجب أن ينفي الجاحظ في هذا السياق وجود النثر على هيئة النثر وأن يردُّ اللُّغة والمخاطبات إلى المنظوم.

- وقد جاء «النثر المبتدأ» في الحيوان نوعين : نوع يطلق عليه اسم النثر التخيلي ويتناول كل الأنواع والأشكال السردية التي يتناقلها الناس مشافهة، يُضيفون إليها، ويُقصّون منها، ويحوّلونها إمعانا في إبراز ما فيها من غريب بديع، وطريف نادر، ولما فيها، أيضا، من اختلاق، ومن بناء على الوهم، أو ما يرشح به خيال الناس وقد ذكر منه :

* الخرافة⁽²⁷⁾

* الرواية⁽²⁸⁾

* الأخبار⁽²⁹⁾

* القصة والقصاص⁽³⁰⁾

* سير الملوك⁽³¹⁾

(26) الحيوان، 10/2.

(27) حيوان، 301/1، 80/4. نشير إلى أننا نكتفي بالإشارة إلى بعض المواطن دون بعضها لأن عملنا ليس فهرسة.

(28) الحيوان 80/4 وقد جاءت الرواية في هذا السياق مقترنة بالخرافة.

(29) الحيوان 144/1، 168/1 وما بعدها. وقد جاءت الأخبار في السياقين مقترنة بالطرف على الإضافة في السياق الأول : «طرف الأخبار، وعلى العطف في السياق الثاني : «أخبار وطرف». وقد ورد الأخير عاريا عن الطرف في سياق من سياقات الحيوان : 238/3 - 239.

(30) الحيوان، 348/5 ود ورد فيها القصص معطوفين على العوام.

(31) الحيوان، 98/1.

* الملح والنوادر ⁽³²⁾

ونوع ثان يمكن أن نسمّيه النثر العقلي وفيه أدب الدين والاعتبار،
والنثر السلطاني ونثر المواجهة. وقد ذكر منه :

* الخطبة ⁽³³⁾

* الحكمة والموعظة والمثل ⁽³⁴⁾

* الشاهد ⁽³⁵⁾

* الترسل (تمام الترسل) ⁽³⁶⁾

وقد جاءت هذه الأجناس متفرقة في الكتاب، وجاءت في بعض
السياقات مجتمعة وهي سياقات هامة نذكر منها : قول الجاحظ متحدثاً
عمّا يجده القارئ لكتاب الحيوان من الطرافة والفائدة بسبب من كونه
كتباً كثيرة في كتاب واحد :

«ومتى خرج من أي القرآن صار إلى الأثر ومتى خرج من أثر
صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ومن الشعر إلى نوادر ومن
النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن
يكون أثقل والملا ل إليه أسرع حتّى يفضي به إلى مزح وفكاهة وإلى
سخف وخرافة ولست أراه سخفاً إذ كنت استعملت سيرة الحكماء وآداب
العلماء» ⁽³⁷⁾.

(32) الحيوان، 282/1، 101/2، 259/6. وقد ترد مقترنة بـ الغريب، الطرائف، البدائع، أو

معطوفة عليها. 144/1.

(33) الحيوان، 92/1 - 93.

(34) الحيوان، 284/6، 147/7، 149 ...

(35) الحيوان، 153/1 - 154.

(36) الحيوان، 98/1.

(37) الحيوان، 93/1 - 94.

وفي نظرية المناسبة بين الشكل والصناعة والمقام والمقال يورد الجاحظ قوله :

«وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى الفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار أو في مخاطبة أهله وعبداه أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر»⁽³⁸⁾.

وإذا طلب من قارئ كتابه والمستمع إليه أن يشاركه قوله بحضور الذهن والاستعداد التام لتلقي ما يقال إليه يأتي حديث الجاحظ عن بعض أنواع الأدب وأجناسه : «(...) فرب حرف من حروف الحكم الشريفة والأمثال الكريمة - قد عفا أثره، ودثر ذكره، ونبا الطرف عنه ولم يُشغل الذهن بالوقوف عليه. ورب بيت هذا سبيله وخطبة هذه حالها»⁽³⁹⁾.

وفي بيان طريقته في التأليف ومنهجه في التعامل مع غريب الحديث يقول :

«ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئا من هذه الغرائب، وطريقة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب منزل : أو حديث ماثور أو خبر مستفيض أو شعر معروف أو مثل مضروب»⁽⁴⁰⁾.

- إذا استثنينا الإشارة المهمة المتعلقة بالترسل، والواردة في غرضون احتجاجه للكتاب، وبيان الأسباب العميقة التي تدعو المتراسلين إلى التكاثر مع وجود «المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل»⁽⁴¹⁾، واستثنينا أيضا الإشارة إلى ما تقتضيه خطبة الصلح بين العشائر من تطويل⁽⁴²⁾ فإننا لا نجد، عند إيراد الأجناس الأدبية التي ذكرنا، خطابا مصاحبا يصف مضمونها

(38) الحيوان، 368/3، وانظر شيئا بهذا ص. 464.

(39) الحيوان، 542/5 وانظر أيضا ص. 199.

(40) الحيوان، 13/6.

(41) الحيوان، 98/1.

(42) الحيوان، 92/1.

المميّز أو شكلها الداخلي أو شكلها الخارجي وما به يمكن أن تُعدّ جنسا
جامعا، أو نوعا مخصوصا، وهو أمر يدعو الى كثير من الحيرة لا سيّما
وبعض هذه الأنواع معروف منذ زمن طويل، وبعضها، على ما تحكي
المصادر، كان موجودا قبل مجيء الإسلام إن لم يكن، في بعض المذاهب،
أصل الشّعْر ومنطقه.

فلماذا جاء الوعي بأجناس الأدب، ما عدا الشّعْر، على هذا القدر
من الضّمور ؟ ولماذا لم ينعكس وعيه الأجناسيّ العام الذي على هدّى منه
أمكنّت كتابه «الحيوان» على المادّة الأدبيّة الغزيرة الواردة فيه ؟ تتطلّب
الاجابة عن هذه الأسئلة بحثا مستقلاّ نحن بصدد القيام به.

حمّادي صوّد

